بؤس الرفاهية

هذا عنوان كتاب جاد وجيد وصريح وللكاتبة (باسكال بروكنر) ترجمه عبدالله ولد أباه، والناشر مكتبة العبيكان.

وقد درست الكتاب، وقمت بالتعريف به..

وقبل الدخول في الموضوع أشير إلى دراسة صدرت حديثًا تتعلق بالمجتمعات الغنية والفقيرة، وما تعانيه من توتر وإحباط وعدم رضا وأمراض نفسية، فقد تبين أن الدول الأغنى مثل دول أوروبا الشمالية تعاني التوتر وفقدان الرضا والأمراض النفسية، في حين الدول الفقيرة تشعر بالرضا.

فهل يُعدّ عنوان الكتاب (بؤس الرفاهية) مما يصب في هذا الميدان؟

والسؤال: ملايين البشر في العالم لا يجدون الطعام ولا الماء الصالح للشرب يقابلهم ملايين تعيش في رفاهية ودخل عالٍ وخدمات وفيرة وتخمة كبيرة، لكنها (رفاهية بائسة) فهل هذا ما تفرزه (الحضارة المادية)؟

باسكال بروكنر تقول[1]: ليس الافتتان بالماء من أجل الماء جريمة أو مرض، إنه (متعة مؤسفة) إذا لم توازنها متع أخرى، وأهواء أكثر طرافة وأفضل قيمة.

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٤٤) العبيكان طبعة ١٤٢٧هـ.

إنــه (بؤس الرفاهية) إذا كانت (محض مادية) لا نفس ينعشها، ولا نبل يطبعها، وليست مستثمرة اجتماعيًّا في مصلحة (أغلبية البشر).

مــن المهم جدًّا (إقصاء المال عن العرش) الذي أجلسناه - بتهـور - فوقه، وكي نتمكـن بطريقة أفضل من (إرجاعه) إلى دوره بوصفـه وسيطًا أو (عاهرة) كونيـة (شكسبير) تقرب بين المتناقضات، وتروي القارات والثقافات... ا.هـ.

لعـل من غير المقبول أن يجري توزيع الثروة، فيكون نصيب ٢٠٪ مـن العالم الحصول على ٨٠٪ مـن الثروة، والباقي لا يجد أحيانًا ما يأكل.

العالم منــذ أقدم العصور فيه أغنيـاء وفقراء، لكن توزيع الثروة لم يكن بهذه الصورة، وبهذه (الحدة).

فـإن استمـرت الحال هكـذا فإن شعوبًـا ليـس أمامها إلا الموت جوعًا أو الثـورة أو الجريمة المنظمة أو الإرهاب، أو تفجير سيارات على أمل لقاء حوريات في الجنة!

عـودة إلى (بؤس الرفاهية) سوف أبقى مـع الكتاب لنقل نصوص جيدة ومعبرة بقوة:

١ - عندما تفتقد العدالة.

ضعف العدالة أو فقدانها يعني حصول خلل كبير، تقول باسكال[1]: عندما لا تكون (عدالة كاملة) على هذا الكوكب، سيميل المضطهدون دومًا إلى القتل والاغتصاب والإبادة باسم (الدين أو العرق أو الطبقة)... ا.هـ. فهل من مصلحة العالم حصول ذلك؟ ولمصلحة من؟

٢ - لماذا يكره العالم أمريكا؟

للحب أسبابه ودواعيه، وللكره كذلك، وكره الدول وعشقها لا يتم إلا بتراكم الأسباب.

ونسأل باسكال: لماذا يكره العالم أمريكا؟

تجيب باسكال - بكل وضوح[2] -: هناك (ألف سبب) لكره أمريكا: نتيجة لنجاح (اقتصادها الوقح) و(قوتها المفرطة) وتمييزها الدائم (بين الأعراق) و(قساوة نظامها العقابي) و(مثاليتها المتباكية) في خدمة صلف وجشع (مركب المال) الهائل و(مظاهر التفاوت الاجتماعي) و(نتيجة لغرورها المذهل)، الذي لخصته مقولة بوش - خلال حرب الخليج - لا مساومة على خط الحياة الأمريكية..... وأما الناطق باسم بوش الابن فهو يصرح: إن نمط الحياة الأمريكي مبارك.

---

(١) بؤس الرفاهية ص (١٢٠).

(٢) بؤس الرفاهية ص (٩٩).

ويمكن أن نؤنب أمريكا على (نفاقها) فيما يتعلق بسياستها الخارجية و(تهورها) في التعامل مع الطغاة (الموالين لها) الذين (تمولهم ثم تتبرأ)، وقد يقتضي الأمر (صنع وحوش) سينقلبون عليها بعد ذلك...

كما تلعب (سياسة العصا) داخل فنائها (الخلفي) عندما تغدو (مصالحة مهددة) على الرغم من نقمة الشعوب، كذلك تمارس (ازدواجية المعايير)، فتروج لنموذج (لا تطبقه) فتنتهك العقيدة الليبرالية من خلال إجراء (الحماية)، والتدخل (العدواني) في الميادين الحيوية، مثل: (السلاح والفضاء والتقانة وصناعة السيارات)..

وأخيرًا، فإن على (أبناء العالم القديم الفاسدين) أن يدفعوا ثمن إنقاذ أوروبا من (شياطينها) ثلاث مرات في الأعوام ١٩١٧، ١٩٤٢، ١٩٤٧م، فإن مثل هذا (الدين) هو أقرب ما يكون (للعار).

باختصار: أينما وجهت نظرك (للأمريكيين) تجدهم (مخطئين) والمأزق يكمن في (صعوبة الاختيار) لشدة ما يجدون من هوة تفصل (المثال الديمقراطي) عن نتائجه الملموسة، خصوصًا إذا كان مقرونًا بالتفوق.. ذلك أن (الإمبراطورية المتشدقة بالأخلاق) والعبارات المنمقة، تعجز عن الوفاء

بالتزاماتها، فهي تشخص من خلال (تفوقها الكاسح) بين بعدي (الجلاد والضحية)..

إن قناعة الأمريكيين بكونهم مصطفين لبناء (قدس جديدة) مبرأة من (الذنوب) للجنس البشري، تولد (خوف الجميع) من لحظة جنون تنشأ عندما يعمد - سوء الحظ - شخص مثل د. فولامور إلى أخذ قرار مثير، يريد اختزال (الشؤون البشرية) المعقدة في منطق (الذرة) وحده باسم (الجهاد المقدس ضد البشر)..

إن كثيرًا من (الخلافات الجديدة) تفصل ما بين العالم القديم والجديد، وذلك في الشؤون التجارية والهيمنة الثقافية ودولة الرفاه، ولكن كذلك في (عبادة المال والحرب، والنزعة التطهيرية المتكررة)... ا.هـ.

قائمة طويلة من اتهامات تمكن أي (مدعي عام) أن يحكم على النظام الأمريكي بالفشل والعار وتحمل كل (موبقات الاستعمار) وأوزاره مع سوء التعامل مع شعوب العالم قاطبة.

٣ - لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟

رؤساء كثيرون لأمريكا ابتداءً من إيزنهاور وروزفلت إلى بوش (الابن) ومجلس الأمن القومي يتساءلون: لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟!

للإنصاف هناك أكثر من جهة أشارت بإصبع الاتهام إلى السياسة الخارجية الأمريكية، التي صارت (صدى) لما تريده إسرائيل وما تراه، ومع ذلك وبسبب قوة اللوبي الصهيوني وتسلطه على جهاز الحكم، فنجد نوعًا من التهرب واختراع أسباب لا يصدقها حتى من يطلقها مثل الحسد، وكأن نظم العالم كلها فاسدة فاشلة إلا النظام الأمريكي.

ولعل من الغرائب أن نطلع على سبب جديد كل الجدة، وهو: إن استعمال (الحرف العربي هو السبب) فمتى ترك (الحرف العربي) وجرى استعمال الحرف اللاتيني انتهت المشكلة.

٤ - الحرف العربي سبب الكره.

نشرت د. بثينة شعبان - وزيرة المغتربين في سوريا - مقالًا في صحيفة الشرق الأوسط في ٢٠٠٤/٧/٢٦م تحت عنوان: (معاداة العرب في مشروع عنصري جديد)[١].

يشير المشروع إلى أن (الخط العربي) هو المسؤول عن كره أمريكا، من ثم فإن العمل على استبدال هذا (الخط) بالخط اللاتيني مثلًا، سوف يزيل هذا السبب، ثم يتبع ذلك أمور أخرى لاحقة، وذكرت وجود دراسة تحت عنوان: (تحديث

(١) استفزني المشروع الأمريكي، فكتبت (مطابخ الكره والعنصرية) ونشر عام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م محاولة رسم صورة للكره والعنصرية وأسبابهما.

الثقافة العربية)، واعتبار المشروع جزءًا من خطة (الإصلاح في المنطقة) ضمن مشروع أعم وأكبر، هو: (مشروع الشرق الأوسط الكبير)..

في هذا المشروع يذكر (معدوه) أنه بعد الهجوم على الأبراج التجارية الأمريكية، تم إجراء أكثر من (٦٠٠) دراسة ما بين عام ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤م خلصت كلها إلى أن الغرب يواجه صعوبة كبرى في استيعاب الحضارة العربية، إذ لم يتمكن من التعرف على (شعور الإرهابيين) الحقيقي أو الدوافع لارتكاب هذه الأحداث، في حين (يتقن العرب) اللغة الإنجليزية كأهلها؛ لذا فالمشروع (يخطط لإلغاء) المناهج القائمة حاليًا، والتي تعتمد على دراسة القواعد والصور الجمالية وإبداعاتها..

والهدف من المشروع ليس تحرير (اللغة العربية) من أشكالها التقليدية، التي عمرها آلاف السنين، ولكن (تحرير العقول العربية والإسلامية) والقضاء على (الموروثات السلبية) مثل الانتقام والعنف والإرهاب.

ويحدد (المشروع) خطوات ملموسة للتخلص من قواعد اللغة العربية، ومن ثم فصل اللغة عن ماضيها وتراثها، وبالأخص (عن القرآن) لنزع صفة القداسة عنها، ثم يأتي بعد ذلك تغيير (المعاني) والهدف إقناع الأجيال الشابة أن العصر

الحديث يتطلب التخلص من (التعقيدات اللغوية) كتلك التي تفرضها (لغتهم العربية).

المشروع يؤكد أن الخطوة الأساسية في هذا (التعديل) تكمن في أن يوافق العرب على تغيير (شكل الكتابة) لتبدأ الإشكالية في (اندثار العربية) شيئًا فشيئًا.

يشمل المشروع (خطوات مدروسة) شارك في وضعها (علماء نفس ولغويون وسياسيون) وقد حسبوا حسابًا (لأدق التفاصيل) ولردود الأفعال، وتلخص الخطوات على الشكل الآتي:

١ – التعبير عن النص العربي أو القرآني بفكرة جديدة، هي ذات المعنى.

٢ – التعبير عن النص أو الآية بفكرة قريبة منها.

٣ – تغيير فكرة النص «الآية» دون اصطدام مع الفكرة الأصلية.

٤ – تغيير الفكرة بما يؤدي إلى التشكيك في الفكرة الأصلية.

٥ – زيادة الألفاظ والعبارات في ذات الفكرة وزيادة مساحة التشكيك في الفكرة الأصلية.

٦ – القبول والإقناع بتفسيرات جديدة للفكرة الأصلية، بما يؤدي إلى محو معناها الذي كان قائمًا مدة طويلة في الأذهان.

٧ – دراسة ردود الأفعال حيال الخطوات السابقة كافة ومجابهة المعترضين.

٨ – تغيير الفكرة الأصلية وإحلال فكرة جديدة محلها (بشكل نهائي).

وسيتم تحديد طبيعة (التوجهات العدوانية أو المسالمة للعرب) من خلال دراسة مواقفهم من (أشكال الكتابة الجديدة) والشخص العدواني هو من يرفض (أشكال الكتابة الجديدة) أما الشخص السوي فهو الذي يعتمد على استخدام الأشكال الجديدة للكتابة.

ويخطط أهل المشروع (لمحاصرة الرافضين) له باتهامات مثل: (متشددين، متطرفين، تقليديين، متحجرين)... إلخ.

بعض علماء النفس - الذين اشتركوا في المشروع - يعتقدون أن تغيير أشكال الحروف العربية سيقلل من حدة (العداء والكراهية المتأصلة) لدى العرب ضد (أمريكا والغرب) بصفة عامة.

هناك مقترح يقضي بإلغاء لفظ (اليهود) ليحل محله (الساميون).

الجديد في المشروع اتهام الحضارة العربية بأنها (تتناقض مع مبادئ الماديات الحديثة، واللغة الدولية) في بناء التواصل الفكري.

والحضارة العربية بطبيعتها (متعصبة) ما يقود لصدامها مع الحضارات الأخرى، وقد حان الوقت (للقضاء على هذا التعصب).

هـذا بعض ما ورد في المشروع، والسؤال: هل سيطبق هذا المنهج مع اللغة العبرية مثلًا، ومع العنصرية التي تملأ التوراة والتلمود؟

٥- عينة من الكره والعنصرية.

كتب (ترونو تيرتاريس) كتابًا عنوانه: (حرب لا نهاية) طبع بباريس عام ٢٠٠٤م، وهذا بعض ما جاء فيه:

١ - ترى أمريكا أن تدمير الأبراج التجارية يضاهي تدمير (هيكل القدس).

٢ - إن أسامة بن لادن يضاهي نبوخذ نصر الذي هدم القدس، وسبى اليهود.

٣ - إن سقوط بغداد هو مثل سقوط بابل التي ورد ذكرها في (رؤيا يوحنا) في أواخر الأناجيل وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام.

٤ - يدعو روبرت حواني - من جماعة الدفاع عن الإيمان - الرئيس بوش، ويحثه لشن حرب صليبية جديدة؛ لتدمير المدن الإسلامية.

٥ - ينقل الكاتب عن فرانكلين غراهام أن الإسلام أخبث الأديان.

٦ - الواعظ روبرتسون يصف المليار مسلم بأنهم شر من النازيين.

الإنسان يغالط غيره، ويكذب على عدوه، فهل انتهى أصحاب المشروع العربي من كل أسباب الكره والعنصرية، ولم يبقَ في العالم إلا تغيير الخط العربي واللغة العربية؟

هل يستطيع أحد في أمريكا أن يكتب مثل هذا المشروع تجاه اللغة العبرية وخطها، وما تحويه كل من التوراة والتلمود من كره واحتقار لغير اليهود؟

أم أن المثل العراقي الشعبي القائل: «أبي ما يقدر إلا على أمي» هو من يضع موقف كتاب المشروع العربي؟

٦- إنسان اليوم وليد الصراع.

عودة إلى باسكال وبؤس الرفاهية، فهي تتحدث عن إنسان اليوم الذي صاغته الحضارة، وعاش صراعات لا نهاية لها ولا آخر.

تقول باسكال[١]: الإنسان اليوم هو حصيلة (كل الصراعات التي صاغته) إنه خليط (متنافر) من التقدمي والرجعي، القومي والأممي، المؤمن والمتشكك، إنه يسير بسرعة وانتظام، وهو (حيز عدمي) من الأفكار (المتصارعة) يرغب في الشيء وضده، تخترقه أصناف عابرة من الافتتان، كما تخترقه قناعات هشة... ا.هـ.

---

(١) بؤس الرفاهية ص (٩٠).

هـذه الاختلافات والصـراع الذي لا نهاية لـه، بعض هذه الصراعات مفيد، لكن الصراعات الكبرى مهلكة وغالية الثمن، ولنتذكر القرن الماضي، وقد شهد حربين كونيتين، وضربت بعض مدن اليابان بقنابل نووية، ولا تزال آثارها حتى اليوم..

٧- مصير المتمردين.

الإنسـان مخلوق متمـرد، حينًا علـى نفسـه، وأحيانًا على مجتمعـه، وفي أكثر الأحيـان على حكومته، وأحيانًـا على خالقه ورازقه.

هذا (المصارع) ما مصيره؟ وأين ينتهي؟

باسكال تجيب قائلة: هناك أربعة احتمالات[(١)]:

١ - ينتهي المتمرد الثائر في صراعه بالتحول إلى مستبد.

٢ - يصير مهربًا وتاجرًا للمخدرات - يصارع الشرطة -.

٣ - الموت (ممتشقًا) سلاحه.

٤ - العيش في ذاكرة الناس بوصفه شهيدًا.

أمـا إذا بقـي حتى تدركـه (الشيخوخة) فيتحـول إلى نوع مـن (صعلوك حرفـة) يمتهن (العناد) أو يقـوم بتأسيس حزب سياسي جديد؛ ليسمع صوته للآخرين... ا.هـ.

(١) بؤس الرفاهية ص (٥٢).

كنت أقول لبعض طلبتي: أنا أفهم أن يعيش طالب متمردًا ثائرًا (يصارع) الحكومة أو يغالب المجتمع حين تكون له قضية، ولكني ألاحظ وجود متمردين ثائرين، لكنهم في طور البحث عن (قضية)، وهذا يذكرني ببناء (معلق) على أمل اقتناء (مصاعد)..

فإلى كل المتمردين - أحياءً وأمواتًا - الفرص أمامكم قليلة ومحدودة، أقترح دراسة جادة لها قبل التمرد والدخول في (صراع) مجهول الهدف والمصير، علمًا بأن عصر (الصعلكة) قد ذهب، ومع وفاة (الماركسية بالسكتة الدماغية) فالمستقبل مظلم، وقد رأيت مناظر محزنة محبطة (ثوار ومتمردون يساريون ماركسيون وماويون) صار أعز أمانيهم الحصول على (صورة) مع سفير أمريكي ولو بعد (تقاعده) والشكوى لله..

٨- أمراض الأنا.

المخلوقات الحية: الإنسان والحيوان والنبات تمرض، والإنسان يمرض نفسيًّا، فيصاب بجنون العظمة، والجنون فنون، لكن أن يصل مجنون عظمة ليكون رئيس دولة فهذه كارثة من أكبر الكوارث.

كتبت باسكال[(١)]: لاحظ كثير من الأطباء النفسيين أن أمراض (الأنا المعاصرة) كثرت مثل النرجسية والاكتئاب

(١) بؤس الرفاهية ص (٥١).

والاستنكاف والهروب، وقد كانت في الماضي أفعالًا (تمردًا) كعصيان الفرد الجموح، وعبادة الذات وأمثالها... ا.هـ.

ألاحظ أنه كان لدينا نجوم سينما، ثم صار لنا نجوم رياضة، ومع التوسع في الفضائيات صار لدينا ولدى غيرنا وعاظ ومفكرون يلوكون (كلامًا) يحمل صفات الماء كلها، لا لون ولا طعم ولا رائحة، لكن نرجسية الحاكم هي الأخطر، فقد تسوق البلاد والعباد من حرب خاسرة إلى هزيمة منكرة، ومن أم المعارك إلى أم المهالك، وحين يكثر المنافقون والمصفقون يهلك العباد وتخرب البلاد، فإلى أين المهرب؟

أفتونا مأجورين غير مأزورين..

٩- إذا مات منا سيد.

في الحياة مستبدون، فإذا وصل أحدهم لإدارة حظيرة ماتت الحيوانات جوعًا وعطشًا، أما في الحكم فما إن يمت مستبد يخلفه أسوأ منه وأفتك، ويموت منافق ليخلفه جيش مثله.

دانيان ميتران - زوجة الرئيس الفرنسي الراحل تقرر حقيقة لها (حلاوة الحنظل) فهي تقول[١]: إن اختفاء الاستبداد الشيوعي فتح الباب أمام (وباء أسوأ) هو (الاستبداد الليبرالي) المعروف في العالم أجمع... ا.هـ.

---

(١) المرجع السابق ص (٤١).

حقيقة موجعة في رأي عشاق الليبرالية والمسبحين بحمدها، ولو لم يقرؤوا عنها كتابًا واحدًا، أليس من الحب ما قتل، ومن العشق الهبل؟

١٠- نحن نرفض.

منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م ونحن نرفض ونشجب ونستنكر، وقد مللنا، ولكن لا فعل ولا قول، فماذا يبقى لنا؟

الباحثة باسكال - ولعل لها أصلًا عربيًّا - هي الأخرى ترفض، لكن - والحق يقال - دون شجب ولا استنكار.

إنها تعتقد أن (العولمة) هي الحرب العالمية (الرابعة) من أجل (السوق الليبرالية) الجديدة؛ لذا فهي ترفض الليبرالية القصوى، والبرجوازية القصوى، والإرهاب الأقصى، والقوة العظمى الأمريكية(١)... ا.هـ.

ويبدو أن (القصوى) سقطت سهوًا.

فما رأي عشاق الليبرالية والمتيمين العاشقين لأمريكا؟ أليس هذا (الرفض الجديد) أشهى وأحلى من رفضنا وشجبنا واستنكارنا أم لا؟

---

(١) بؤس الرفاهية ص (٣١ - ٤١).

١١- هل من العدل؟

إن السياسة الاقتصادية اليوم تزيد الأغنياء غنى، كما تزيد من عدد الفقراء ومن جسامة فقرهم.

باسكال تقول[1] - والعهدة على الراوي -: إنه صار في عام ١٩٩٨م (٣٥٠) من كبار أغنياء العالم يسيطرون على ثروة تتجاوز الدخل السنوي لقرابة نصف سكان العالم... ا.هـ.

هذا يعني أن ثلاثة مليارات من البشر يملكون بقدر (٣٥٠) من الأغنياء، فهل هذا من ضمن عدالة التوزيع؟

أم من العدالة أن يستولي ٢٠٪ من البشر على ٨٠٪ من ثروة العالم؟

هناك ملايين يموتون جوعًا، وربما ملايين يموتون تخمة، وتبحث عن (رجيم)!

١٢- صوفية جديدة وعبادة جديدة.

عرف العالم القديم التصوف وتعمير القلوب وإهمال ما سواها، الحكومات اليوم تعشق التصوف، وتدعو الله ليل نهار لانتشاره؛ كي تتخلص من الإزعاج والمزعجين والثوار والمتمردين.

---

(١) المصدر السابق ص (١٦).

باسكال تقول[1]: أحد المحللين الماليين من رجال (رويل ستريت) يدعو إلى قيام (حركة تصوف) جديدة، تزهد في كل شيء، حيث يدعو المحلل إلى:

١ - أن يموت الناس معدمين.

٢ - أن يمزقوا بطاقات الائتمان.

٣ - أن يتخلصوا من الأرض.

٤ - أن يهملوا الإخلاص للشركات.

٥ - أن يرفضوا معاش التقاعد.

٦ - أن يلتزموا التقشف في العيش.

إنه مثال جديد للقرن (٢١) بمقاومته التكاليف الباهظة والمشتريات غير المفيدة..

تنتقل باسكال للحديث عن (عبادة جديدة) فتقول[2]: النتيجة المنطقية لمجتمع (السوق) هي (الدعارة المصممة) وتحويل الجنس البشري إلى (معتوهين) أو جيش من الخدم يتفانون في تقديم صنوف من العناية للأثرياء.. ا.هـ.

والسؤال: هل ستقود عبادة السوق إلى حركة صوفية تكفر بالسوق وأهله، والأغنياء وطلباتهم النرجسية، وشبقهم وعشقهم للمال ولذواتهم وملذاتهم؟

---

(١) بؤس الرفاهية ص (١٦١- ١٧٣).

(٢) المرجع السابق ص (١٧٨).

إن التطرف يولد التطرف - والفكرة تطلق نقيضها، وتصارعه، كما يقول المعلم (هيغل).

١٣- أحلام بعيدة.

قد يكون جزء كبير من متاعب الإنسان والأمم عائدًا للأحلام والصراعات القائمة بسبب هذه الأحلام.

للغرب أحلامه وأشواقه وتطلعاته، وكثير منها تتبخر قبل أن تتحقق، تقول باسكال[١]: إن عذاب الغربيين الحقيقي يتمثل في (الوعد) الذي لم يتحقق، وربما لن يتحقق، وهو (الرهان على أن التقدم غير المحدود في المعارف والتبادلات سيواكبه نمو أخلاقي) للإنسان، واعتراف متبادل بين بني البشر. هذا الإحباط مقدر في المشروع نفسه لما ينطبع به من (غلو وإفراط في مراده) وهو توفير (أنعم العيش لكل البشر).

ورفع الإنسانية لأعلى القمم، حيث لا مقارنة بينهما وبين حقب التاريخ الماضية، إنه نوع من (سراب الإمكانات) المثير للدوار وخيبة النتائج، التي تبقى دومًا دون التطلعات... ا.هـ.

مكتوب على الإنسان أن يحلم، وقبل أن يحقق حلمه الأول يحلم بثانٍ وثالث وهكذا، حتى إنه يموت وتموت معه بعض

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٤٨).

الأحـلام، ويعمل التصـارع مثل (كابـح ومعوق) فيمـا يحلم به إنسـان قد يدافعه آخر، وما تحلم به أمـة أو حضارة تتصدى له أمة أو حضارة لمنعه، والوقوف في وجه تحققه، وهكذا يعيش الفرد في (كبد) يصارع الطبيعة مـرة، والمرض أخرى، والفشل ثالثة، وهكـذا.. الأمة وإن على نطاق أوسع، فتصارع الأمم يترك خلفه أحيانًـا كوارث تبقى زمنًا طويلًا، وقـد تبدأ الأمة من (الصفر) ثـم تمضي السنون في البناء، فتأتي حرب فتدمر كل ما تم بناؤه، وتعصف بالنـاس وأخلاقهم عواصف مدمـرة ليس للأمة قدرة على تجاوزها، وإصلاح ما دمرته الحرب والصراعات الدامية، وخصوصًـا الفساد الذي يضرب أخـلاق الناس والتصدع الذي يصيب العلاقات الاجتماعية والقيم والمثل.

إن الحـرب أشبه ما تكـون بالزلزال ذي الدرجـة العالية، يصيب النـاس على حين غفلة، ودون استعداد.

١٤- مفرزات التحضر.

لـكل شـيء ثمن، وكل مـن يحـرك ساكنًا لزمـه كما يقول العلمـاء ويعتقـد كثـير أن التاريخ يتحـرك، لكنهـم يختلفون في وجهتـه، هـل يسـير إلى الأمـام في تقـدم صاعـد أم في تراجع مستمـر؟ أم يتحـرك بشـكل دائري؟ وهـل الدوائـر مفتوحة أم مغلقة؟ والأمل أن يتم بحث كل ذلك بإذن الله تعالى.

باسكال ترصد حركة التحضر، فتقول[1]: الماء ملوث، والهواء غير صالح للاستنشاق، والطبيعة محطمة، والمواليد الجدد يلعنون آباءهم لتوريثهم هذه (الهدية المسمومة) لقد روضنا الطبيعة بقدر ما دمرناها، مع أن مصيرها يلتبس بمصيرنا، وسيطرتنا عليها تجعل منا أسرى فضلها، وهذا دين نؤديه على شكل نمط من (السلب) لا حد له... ا.هـ.

الإنسان هو منشئ الحضارة وبانيها، وهو القادر على هدمها وإحداث أكبر الضرر فيها.

والإنسان في العصر الحديث اندفع خلف قدراته العلمية، ففلق الذر وأطلق قوة ربما لا يقدرها حق قدرها.

راح يتصرف في الطبيعة دون حساب، فلوثها أكبر تلويث، أنهار كانت حتى الأمس عذبة سائغة، صارت اليوم لا تصلح للشرب ولا للري... دولة عربية أقامت مصنعًا كبيرًا للنسيج على حافة نهر صغير، وما لدى المصنع من زيوت مستهلكة تذهب للنهر، وكل مواد كيماوية وأصباغ وغيرها ترمى في النهر، وبعد مدة لم يعد ماء النهر يصلح لشرب الإنسان أو الحيوان، أو لعيش السمك.

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٥١).

في الصين وجدوا الطيور تأكل بعضًا من محصول الأرز، فقاموا بقتل الطيور، وفوجئوا بحشرات كثيرة تتلف من الأرز أكثر مما تأكله الطيور.

في دولة عربية قررت الحكومة قتل القطط، فهي مستهلكة ولا نفع فيها، وبعد المذبحة امتلأت البلاد بالفئران وغيرها.

ويسجل اليوم - من دون فخر - أن الإنسان المتقدم هو الأكثر تلويثًا للطبيعة في حين المتخلف هو الأقل تلويثًا.

ولو قارنا المدن الصناعية الكبيرة بالقرى الصغيرة للفلاحين، فماذا نجد؟ إن العيش في المدن الكبرى صار فاسدًا مؤذيًا مكلفًا للإنسان من كل وجه..

١٥- مال وافر وحياة بائسة.

مفارقة كبيرة تتمثل في: وفرة المال وحياة بائسة!

المفروض في توافر المال أن يتحرر صاحبه من الضرورة المادية، فالمال من شروط الحرية، وإن كان ليس الشرط الوحيد لها.

لكن عندما يصير (الربح) هو الغاية الأسمى فإن (الجمع) يصير أسلوب الحياة، فإن كان توافر (العمل) يجعلنا أكثر (ثراءً) فلماذا تزداد حياتنا فقرًا مع توافر المال؟

سؤال تطرحه باسكال[١]... ا.هـ.

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٤٠).

يقول الله تعالى عن الإنسان الذي يجمع المال، فيصير الشغل الشاغل لصاحبه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ (الهمزة: ٢-٣).

ويقول الفيلسوف نيتشه: اجمع اجمع ذلك هو الشريعة والقانون! تعتقد أعداد كبيرة من البشر أن (وفرة المال) تجلب السعادة؛ لذا تندفع في (صراع محموم) نحو جمع المال - بعضهم - يهمه الجمع - بطرق مشروعة أو من دونها على أمل الحصول على (سعادة) وضمان المستقبل، وفي حمى الصراع قد يتحول الإنسان إلى (خادم) للمال يدفع من أجله كرامته وراحته، في حين المطلوب أن يكون المال (خادمًا) وليس مخدومًا...

باسكال تقول[1]: بالنسبة إلى الأغلبية - من البشر - لا يشكل المال مسلكًا يقينيًّا للسعادة، بل مجرد ضمان (ضد البؤس) فهو ركام من (ذهب وأرقام وأوراق) مطلوب منها أن تخفف من (قلق الموت والمرض)..

إن جمع المال هو (طريقة خرافية) لإبعاد هذه (الأشباح الكونية) التي تهدد حياتنا... ا.هـ.

ومن الأدلة الجديدة على أن (الجمع) علاج وهمي، أن دراسة للدول والمجتمعات أثبتت أن المجتمعات الأغنى هي الأكثر قلقًا وتوترًا والأقل سعادة من شعوب فقيرة في آسيا وإفريقيا.

(١) المصدر السابق نفسه.

والسؤال الكبير: ما المطلوب إذن؟

الإنسان يتطلع لتملك أشياء ليست عنده، مثل السكن الجيد والسيارة الفارهة والوظيفة عالية الراتب، لكنه ما أن يحصل على شيء منها حتى يزهد فيه، ويبحث عن غيره، هل سبب ذلك (الملل) أم الفراغ الروحي؟ أم حدة الصراع؟

تجيب باسكال[1]: علينا أن (نثمن) كل ما لا ينتمي إلى عالم (المنافع)، أي (أصناف الخيرات) غير القابلة للتحجيم والحساب، مثل: الشعر، الحب، تأمل الطبيعة، التضامن... أي كل ما يتجاوز الإنسان ويسمو به فوق ذاته، وينتزعه من (صغره وحقارته المادية وهوسه القهري بالجمع والتكديس).

وهكذا نقيم مع (الرأسمالية) علاقة لا حب فيها ولا كراهية، بل مجرد (تهكم ووقاحة) فنأخذ من (هذه الأداة) ما يلائمنا، ونترك، وننبذ ما (يعيقنا).

إن الرأسمالية (عامل ثراء) غير مسبوق، لكنها عامل (تحلل لا علاج له) في ذات الوقت... ا.هـ.

في الإسلام يحتل المال (مركزًا فريدًا) جاء في الحديث النبوي: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**».

---

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٣٩).

والغريب في أمر المال أن مالكه يحاسب عنه مرتين: في الأولى، من أين جمعه؟ من الحلال أم من الحرام؟ وفي الثانية، كيف أنفقه؟

فقد يجمع الإنسان المسلم ماله من حرام أو حلال، وقد ينفقه في حلال أو حرام، وقد يختلط هذا بذاك.

وفي الإسلام - كما ورد في السنة - أن الإنسان يجمع خلقه في بطن أمه، ويكتب (رزقه وأجله) ثم تنفخ فيه الروح..

فلو فكر الإنسان ساعة، وقال في نفسه: ما دام الرزق مكتوبًا - من دون زيادة - والأجل كذلك، فليكن التحري بصدق أن يكون المال المكتسب من حلال وأن ينفق في الحلال، فيكون فعلًا نعمة لا نقمة، ويبارك الله تعالى فيه، فقد يكون قليلًا، لكنه مع الرضا والحلال يكون وسيلة لعيش كريم، وليس وسيلة للتعالي والطغيان، وصدق الله القائل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ...﴾ (العلق ٦-٧). ويلاحظ أن الآية حوت (مؤكدين) إن واللام.

أما الشيء الجديد فهو سريان (الطغيان) من الفرد للأمة، فالأمم الغنية اليوم تتعالى، وتتكبر، وتتجبر على الأمم الفقيرة، وتحتقرها أكبر احتقار، ومستعدة أن تسلبها كل شيء وكأنها تقول: نحن أقوياء فلنا كل شيء وأنتم فقراء فلا حقوق لكم[1]!.

(١) بؤس الرفاهية ص (٢٥٨).

ولعل من الجديد المؤذي أن الأمم الصناعية صارت تقدس الصناعة وأهلها، وتزدري ما سواها، مثل الزراعة وأهلها، وهذه (طبقية جديدة) غير طبقية الماركسية.

ومن المفرزات المؤذية جدًّا، ومن مفرزات (السوق) اتساع الهوة حيث تضاعفت ما بين الشمال الغني - ومستعمر الأمس - وبين الجنوب الفقير - الذي استعبد ونهبت ثرواته - وجعل يعيش على هامش الحياة. فالفرق مثلاً ما بين سويسرا والموزنبيق وصل (١-٤٠٠) بينما كان (١-٥) عام ١٨٠٠م.

لقد قلبت الدول الغنية (اللعبة) بل قلبت (الطاولة)، فمن يعيدها؟

١٦- ما الحل؟

ما تعانيه البشرية ليس شيئًا بسيطًا، لكنه لا يستحيل على الحل إذا ما صدقت النفوس، وتوخت العدل.

باسكال تقترح حزمة مقترحات[١]:

١ - إنشاء (دولة أوروبية) تحقق التوازن مع الهيمنة الأمريكية.

٢- إقامة تجمعات (كونفدرالية) كبرى على امتداد القارات الأربعة.

(١) المصدر السابق ص (٢٣٣).

٣ - إصلاح صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة والبنك الدولي من أجل ضبط الأمور بشكل أفضل.

٤ - اختراع نموذج جديد من (دولة الرفاهية) يلائم الظروف الحالية للعمل والأجور... ا.هـ.

ما تحتاج إليه البشرية ليس تكديس البضائع، ولا التنافس والتصارع على الأسواق، ولكن توخي العدل، والنظر للإنسان بمنظار (**كلكم لآدم وآدم من تراب**).

أما الإعجاب بالنفس، واحتقار الآخرين فهو نرجسية مخيفة كفيلة بإشعال الحروب وتدمير الحياة على الأرض والعودة بها وبأهلها إلى العصر الحجري والعيش على الصيد، وتدمير كل ما حققه الإنسان من تحضر خلال وجوده على الأرض، بالعدل قامت السماوات والأرض وبه تبقى وتدوم..

لقد جرب الإنسان أمورًا كثيرة ومنها اختراع عقائد وسنّ شرائع وطرح قيم ومبادئ والمحصلة (رفاهية بائسة) أو حضارة بعضلات مفتولة وعقل شيطاني، فهل من الصعب العودة إلى شرع الله والعمل على أن تكون الحضارة متوازنة ماديًّا ومعنويًّا، عقلًا وروحًا، عدلًا ورحمة، أم تناحر وتقاتل، وصراع محموم يهلك الغالب والمغلوب، المشارك والمتفرج معًا؟

العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي

هذا عنوان كتاب للصديق الأستاذ عبد الحميد أبو سليمان، وهو دراسة لنوع من الصراع داخل الفكر الإسلامي، حيث يقول في المقدمة[١]: ليست قضية (العنف والصراعات الدامية) في حياة المجتمعات الإنسانية أمرًا نادر الحدوث، لا يتوقعه أحد في حياة المجتمعات والحضارات وتدافعها، بل التغيرات كثيرًا ما تقترن في الذهن بأحداث وصراعات دامية، فإذا أضيف ذلك إلى ما زخر به تاريخ الأمة الإسلامية من أحداث وصراعات وممارسة للعنف والاقتتال بين كثير من الفئات والطوائف، وما شكلته تلك الصراعات من (فتات) ممالك وإمارات وسلطنات، كل هذا يجعل الصورة دامية ابتداءً من مقتل الخليفة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وما تلاها من أحداث وصراعات وعنف، أدت إلى سقوط الخلافة الراشدة، وقيام دول الاستبداد وإماراتها وعصبياتها... ا.هـ.

هذا نوع خاص من الصراع عرفته الحضارة الإسلامية - كما عرفته غيرها من الحضارات - لكنه جعل الدراسة خاصة في الصراع السياسي دون سواه، وفي الفكر الإسلامي دون غيره.

ولاحظ المؤلف ما يلي[٢]:

١ - في مكة وقبل الهجرة لم يكن الصراع موجودًا ولا مأذونًا به،

(١) العنف وإدارة الصراع ص (٤) طبعة دار السلام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
(٢) العنف وإدارة الصراع ص (٦).

مع وجـود دواعيه، حيث كان المجتمع المكـي القرشي معاديًا للإسـلام وعدوانيًّا إلى أبعد الحـدود، ومع ذلك منع رسول الله ﷺ كل أنواع الصراع، مع وجود دواعيه وموجباته.

٢ - بعدما هاجـر المسلمون إلى المدينة، وانتشر الإسلام، بحيث صـار المسلمـون القـوة الأولى في المدينـة تغـير الموقف من استخدام العنف ضد المعتدين، فأذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

ويلاحـظ هنـا أن رسـول الله ﷺ طرح ما عـرف بدستور المدينـة، حيث بادر بمعاهدة مكتوبة توضـح العلاقات بين فئات المجتمـع من مسلمين ويهود، مهاجرين وأنصار، كما جعل رسول الله ﷺ من نفسه المرجع في كل نزاع، ومنع الكل من التحالف مع قريش أو إيواء المعتدين أو التستر عليهم، وجعل المعاهدة مفتوحة لمـن يريد الالتزام بها، وهكذا صـار للصراع قواعد مكتوبة لأول مرة - وسوف أعرج على دستور المدينة - لأهميته.

يقـول أبـو سليمـان: تغـير موقـف الرسـول ﷺ وكذلـك المسلمـين، كما تغير منهجهم من قضية (استخدام العنف) ضد المعتديـن، وعلى رأسهم قريش، حين هاجر المسلمون إلى المدينة، وأقاموا فيهـا دولة الإسلام المستقلة، وكيـف أذن القرآن الكريم

للمسلمين في القتال دفاعًا عن أنفسهم ودعوتهم، بل إنه أمرهم به، كما تصدى رسول الله ﷺ لقريش وغيرها من القبائل المحاربة له ولدعوته الإصلاحية، دفاعًا عن النفس، ودفاعًا عن المستضعفين، وسعيًا من الإسلام لإعطاء الإنسان حرية الخيار في عقيدته ونهج حياته..

٣ - عاد الرسول ﷺ لتحريم استخدام العنف أو الرد على العنف (بالعنف) في علاج الخلافات والصراعات السياسية (بين المسلمين) في المدينة، وذلك في توجيهاته وما ورد في (أحاديث الفتنة)، فإذا وزنا الأمور بميزان العقل فعلينا أن نهتدي إلى الحكمة من (إباحة الإسلام) لأتباعه من المسلمين القتال واستخدام العنف ضد (قريش) وحلفائها من المعتدين، بعد الخروج من مكة مهاجرين للمدينة، بعد أن نهوا عنه وحرم عليهم ذلك وهم يقيمون بمكة.. فليس من المعقول أن يبيح الإسلام القتال في (المدينة) وقد حرمه في (مكة) دون أن يكون هناك سبب موضوعي وحكمة بالغة ينبغي الاهتداء إليها..

وهنا ملاحظة، وهي: إن الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ في قتال (قريش والمشركين) حال وصوله إلى المدينة وإقامة دولة المسلمين المستقلة فيها، تدل على علمه بهذه الوسائل -وهو في مكة- وأن امتناعه عن استخدامها لم يكن عن جهل أو

عجز - بما في ذلك تدبير اغتيال بعض الأعداء، مع كونه لم يلجأ لشيء منها في مكة (عن حكمة وقصد)..

.... كان هذا من الثوابت في منهج الدعوة ومنهج التغيير والإصلاح داخل المجتمع الذي كان المسلمون (جزءًا منه) ولم يكن أمر خيار وسياسة، تتغير وتتبدل حسب الظروف في إدارة الصراع، والمعارك السياسية.

يقرر الكاتب أن رسول الله ﷺ منع بشكل عام المشاركة في الفتن داخل المجتمع المسلم، ولو حصل أن وقع على الناس ظلم؛ لأن محاولة التغيير قد تكلف كثيرًا.

وهناك طائفة من الأخبار في السنة تمنع من المشاركة في الفتنة من ذلك: عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل. قال: ارجع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه..**» (رواه البخاري: ٣١)، ومسلم (رقم ٢٨٨٨).

وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «**من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**» (صحيح مسلم: ١٨٥٠).

وفي صحيح مسلم أيضًا، قال ﷺ: «**يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: **لا، ما صلوا..**» (مسلم: ١٨٥٤).

وفي صحيح مسلم يقول ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**.. قالوا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: **لا، ما أقاموا فيكم الصلاة** - يكررها ثلاثًا - **ألا من ولي عليه والٍ، فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعة**».. (مسلم: ١٨٥٥).

الخلاصة: لقد كان للإسلام موقف خاص من الصراع واستعمال القوة، ففي مكة منع الصراع، فلما هاجر المسلمون للمدينة سمح بالقتال ضد المعتدين والمشركين، فلما قامت الدولة الإسلامية منع الصراع باستعمال القوة، وأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حاول علماء الشريعة تحديد المنكر ووضعوا له شروطًا، كما حددوا شروطًا للفاعل (الآمر) ووضحوا درجات للأمر والنهي، مثل الفعل والقول والإنكار القلبي، ولكل صنف أهله.

وتحدث الإسلام عن صنفين من الخارجين على الدولة: قطاع الطريق والبغاة، مع بيان تفصيلي لكل منهما.